

الفصل الرابع

الانسس الخاصة بإجماع كوكبى

من يمكنه أن يقود العالم ؟

فى إطار الحاجة التى أبرزها بول كينيدي إلى إعادة تعليم الجنس البشرى (فى كتابه عن الإعداد للقرن الـ ٢١) ، وفى أثناء رحلة التوجه إلى ابتكار مؤسسات عالمية جديدة (بخصوص التعاون والتخطيط من أجل العدل والسلام) يستحق الأمر قدر من تحليل أنظمة القيمة الاقتصادية التى استخدمها العالم فى القرن العشرين ، وبالتحديد الرأسمالية - الاشتراكية - الشيوعية . غير أنه يجدر بنا قبل ذلك تعرف (وفحص) المقصود بأيدولوجيا ، وكذلك المهام العالمية للأيدولوجيا .

الأيدولوجيا

يمكن تعريف الأيدولوجيات بأنها منظومات من الافتراضات عن القيم التى تستعملها المجتمعات لتشكيل أنشطتها . أو بمعنى آخر تكون الأيدولوجيا عملاً إطارياً فكرياً يعرف المجتمع من خلال القيم ، ومن خلاله أيضاً يعطى المجتمع لهذه القيم حيوية مؤسسية .

ومن خلال تعريف الأيدولوجيا ، يمكن التوصل إلى الاستنتاجات المهمة التالية :

* الأيدولوجيات تمثل جسوراً أو كبارى لحمل قيم مقبولة عالمياً (مثل استمرار الحياة - العدل - احترام الذات - الإيجابية - الاقتصاد ، بمعنى أن تكون الفوائد أكثر من التكلفة ... إلخ) .

* دون أيدولوجيا لا يوجد مجتمع .

* الأيدولوجيا ينبغى أن تلائم العالم الحقيقى real world ، وبالتالى كما يتغير العالم تتغير أيضاً الأيدولوجيا ، فهى ليست ولا ينبغى أن تكون «دوجما» .

يمكن تقسيم الأيدولوجيا إلى مكونات خمسة :

مكونات الأيدولوجيا :

١ - العلاقة بين الإنسان والمجتمع (الفرد - المجموعة - وسائل احترام الذات ... إلخ) .

٢ - الضمانات والمظاهر المؤسسية الخاصة بعلاقة الإنسان مع المجتمع (مثلاً حقوق الملكية) .

٣ - الوسائل المناسبة لضبط إنتاج السلع والخدمات .

٤ - دور الحكومة .

٥ - الإحساس العام بخصوص الحقيقة فيما يتعلق بالقضايا العامة (مثل دور العلم وأهمية التعليم ووظائفه ... إلخ) .

التحول في الأيديولوجيا:

تماماً كما يحدث التحول في النموذج الاسترشادي (والذي سبق الإشارة إليه) يحدث أيضاً تحول في الأيديولوجيا . وإذا كان التحول في النموذج هو بوجه عام أمر شاق فإنه بالنسبة للأيديولوجيا ربما أكثر صعوبة وأكثر مشقة . فالتحول في الأيديولوجيا يسبقه ابتعاد عن الشرعية القائمة ، أو يسبقه ما يظهر كأنه «شيزوفرايا» أيديولوجية ، وسرعان ما تظهر فجوة بين الولاء للقديم وظهور الجديد . إن المؤسسات التي تغادر الأيديولوجيات السائدة سعياً لموائمة العالم الحقيقي ؛ من أجل الحصول على فرض أكثر وقدرة أبر على مواجهة التحديات تفتقد إلى الشرعية ، وتظل بالنسبة للمجتمع في حالة جنوح (لا ذنب لها فيه) إلى أن تعود إلى الأيديولوجيا السائدة ، أو حتى تتغير هذه الأيديولوجيا بحيث تدعم التصرفات الجديدة .

الرأسمالية:

تعرف الرأسمالية بأنها نسق يرعى ويؤيد وجود رأسمالين . كما يعرف الرأسمالي بأنه فرد قام بتجميع رأسمال لديه ، أو أن لديه رأسمالاً متاحاً للتوظيف في مشروعات وأعمال تجارية . هذا يعني أن الرأسمالية نسق يعلى من شأن حقوق الملكية الفردية والتملك الخاص ، ويترك فيه توزيع الثروة للتنافس عبر الأفراد المهتمين بمصالحهم في هذا الشأن .

لقد استمدت الرأسمالية شرعيتها من فكر الاقتصادي الاسكتلندي ، آدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠) والذي يرى أن التنافسية بين الملاك في سوق مفتوح ، تؤدي إلى المجتمع السليم ، كما استمدت شرعيتها أيضاً من فكرة الفيلسوف الانجليزي جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤) بأن الحكومة شر لا بد منه ، إنها الأفكار التي اعتبرها كلا الرجلين تتفق مع النظام الطبيعي natural order (هنا ينبغي إدراك أن ما هو طبيعي عند بروتستانت إنجلترا ربما لا يكون كذلك عند كاثوليك إيطاليا أو مسلمي العراق أو كنفوشيسي الصين أو شينتونيبي اليابان) .

وهكذا يرتبط الفكر الرأسمالي بأيديولوجية فردية . لقد أتت الأفكار الفردية إلى أمريكا في القرن الـ ١٨ ، بعد أن تم وضعها في إنجلترا ، وفي أمريكا وجدت هذه الأفكار أرضاً خصبة قليلة السكان ، حيث اعتبرت الفردية النموذج الخاص بالحلم الأمريكي . ورغم النزعة الفردية الكامنة في المجتمع الأمريكي ؛ إلا أن هذا المجتمع قد شد الآن إلى الكوميونيترانية (من خلال التعامل التنافسي مع اليابان ، ومن خلال متطلبات التكامل البيئي) . وهذا لا ينسينا أن الولايات المتحدة كانت في الأصل لمبدأ كوميونيترانيا ، ولا ينسينا العكس وهو أن الفردية (كما يقول صمويل هينتينجتون) موجودة في القلب جداً من الهوية الأمريكية ؛ بحيث أن الأمريكيين

لا يمكن أن ينفضوا عن الفردية ، دون أن يصبحوا غير أمريكيين . هنا ينبغي تجنب التوصل إلى افتراض خاطئ ، وهو أنه طالما الرأسمالية مرتبطة بأيدولوجية فردية وأن الاشتراكية مرتبطة بأيدولوجية مجتمعية (أو كوميونيتاريانية) ، وطالما أن الرأسمالية هزمت الاشتراكية ، فتكون الفردية قد عازمت المجتمعية . الحقيقة هي أن الأيدولوجيات الثلاث أصبحت بدون معنى meaningless حيث أنها قد استبدلت بمخلوطات متباعدة من الثلاث أيدولوجيات . هذه المخالط mixtures تختلف جذرياً عبر المجتمعات القومية والإقليمية ، ولكن كلها تشترك في أيدولوجيا . مجتمعية communitarian ideology تتعارض مع الأيدولوجية الفردية individualistic ideology .

من المهم هنا أن لا يغيب عن الأذهان المثال الهام الخاص بأوروبا الشرقية . لقد هزت الجلاسنوست والبيرسترويكا هذه البلدان ؛ مما جعل قياداتها تنحى جانباً المناهج القديمة ، وتتجه إلى استقدام أنقى أشكال الرأسمالية (التجارة الحرة - السوق الحرة - المؤسسات الحرة - الكيانات الخاصة - الحكومة المحدودة ... وأشياء أخرى) ، ولم يمر وقت طويل قبل أن تدرك هذه القيادات أن تقاليدهم السياسية وسياساتهم ، وكذلك الأهداف الاستراتيجية العالمية تتطلب خطوات هي بطبيعتها مجتمعية (وليست فردية) ، وهي :

- * احتياج العمال إلى أسهم في المشروع الذي يعملون فيه .
 - * وجوب تحجيم حقوق الملكية لأسباب بيئية ، وللتأكد من توزيع متعادل للدخل .
 - * واجب الحكومة في أن تخطط وتفكر بشأن الاحتياجات طويلة المدى للمجتمع .
- community .

ربما يمكن القول إذاً أن الخيارات لدى كل الأمم هي خيارات في إطار مجتمعي (كوميونيتارياني) ، حيث نجد على أرض الواقع قوى عولمية (أو كوكبية) global forces (مثل التنافسية التجارية وحماية البيئة) تدفع المنظومات الوطنية تجاه تقارب أيدولوجي ، مما يجعل التباينات - حتى بين الأشكال المختلفة للكوميونيتاريانية - تتقلص .

الاشتراكية :

ظهرت الاشتراكية في الثلاثينيات من القرن الـ ١٩ في إطار المواجهة والاعتراض على ما أحدثته الرأسمالية من عدم عدالة . ولقد عرف جوزيف شومبيتر الاشتراكية بأنها «شكل مؤسسى يتم فيه التحكم في وسائل الإنتاج ، وفي الإنتاج نفسه بواسطة سلطة مركزية» ، كما وردت في قاموس اكسفورد باعتبارها «نظرية سياسية لتنظيم المجتمع تهدف إلى (وتدافع عن) الملكية والتحكم في وسائل الإنتاج

الشيوعية :

والأرض ... إلخ لتكون بواسطة المجتمع ككل . ولتكون الإدارة والتوزيع من أجل مصالح الجميع» .

ربما يكون المصطلح communism قد استعمل لأول مرة في فرنسا عام ١٨٤٠ ، ثم استخدمه كارل ماركس عام ١٨٤٨ في مطبوعة «المانيفستو الشيوعي» .

تشير الموسوعة البريطانية إلى الشيوعية باعتبارها نظاماً للمجتمع ، تكون فيه الملكيات properties مملوكة بواسطة المجتمع ؛ حيث تقسم الثروة بواسطة المواطنين طبقاً لاحتياجاتهم . وعند ظهور الاتحاد السوفيتي في منتصف القرن العشرين أصاب الخلل استعمال كلمة شيوعية ؛ حيث صار المصطلح يعنى أى نظام تقوم عليه مؤسسات سياسية تصف نفسها بالشيوعية .

في نهاية هذا العرض للأيديولوجيات الثلاث الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية يمكن القول أنها كانت مخلوقات القرن الـ ١٩ ، وأنها قد اكتسبت معانيها من تفاعلاتها مع بعضها البعض ، وأنه بنهاية القرن العشرين تداخلت هذه الأيديولوجيات وحدث لها قدر من الإذابة . لقد قامت الأنظمة الرأسمالية باستيعاب واستلهاهم معظم أهداف الاشتراكية (وربما وسائلها أيضاً) ، كما أدركت الأنظمة الاشتراكية أن وصولها إلى أهدافها السامية ، أمر يتطلب عديداً من الوسائل الرأسمالية . لقد كان جوزيف شومبيتر إذاً محقاً جزئياً عندما توقع أن الرأسمالية ستحتطم نفسها ، لقد أعطى لذلك ثلاثة أسباب :

١ - أن البيروقراطية في المؤسسات الكبرى ستقلل من الابتكار ، والذي هو أساس لنجاح الرأسمالي .

٢ - ضعف الفردية نتيجة لتغلغل وانتشار الملكية .

٣ - أن الرأسمالية تشجع الطموح النقدي وإنتاج مثقفين لديهم «شغف كبير بالحركة الاجتماعية» .

وهكذا كانت أسباب ومظاهر التحرك من الرأسمالية والاشتراكية إلى المجتمعية أو «الكوميونيتارية» .

كوميونيتارية الانظمة
الآسيوية

لابد من الاعتراف بأن التنمية في الأنظمة الاقتصادية الآسيوية ليس لديها ما تفعله مع الـ isms الغربية (الكابيتاليزم - السوشاليزم - الكوميونيزم) ، وهى أنظمة تواصل - مجتمعية (كوميونيتارية) تشترك في خاصية وجود هذا التواصل وتختلف بخصوص أشكاله . فمثلاً في الصين وتايوان يكون هدف البيزنس إثراء العائلة Familism ، بينما في اليابان يكون خدمة الهيبة الأعظم للوطن ورفادية

أعضاء المؤسسة . وبوجه عام يمكن اعتبار المحرك (أو المحفز) الرئيسى فى أنظمة آسيا انتعاش المجتمع ، وليس سيادة الفرد.

يمكن ذكر الخصائص الرئيسية فى هذا الخصوص بإيجاز كما يلى :

الخصائص الكوميونيتارية

للأنظمة الآسيوية :

١ - علاقات تعاونية (بين البيزنس والحكومة - المديرين والمدارين ... إلخ) تنتج مستوى عالياً من «الإجماع» consensus كخلفية للأهداف القومية .

٢ - قيام الاتفاق والإجماع على أساس عدالة المشاركة فى كل من «الكسب الاقتصادى» .. و .. الألم الاقتصادى (ملحوظة : لدى بلدان شرق آسيا أحسن درجة تساوى فى توزيع الدخل على مستوى العالم) .

٣ - إعطاء التنافسية القومية أولوية على مستوى الأهداف القومية مما يساعد الأمة فى الحصول على نصيب من السوق العالمية بالنسبة لعائدات المنتجات ذات القيمة المضافة العالية ، وفى هذا الإطار لا يكون هناك تمييز ظاهر ، أو مؤثر بين القطاعين العام والخاص .

الكوميونيتارية من منظور

الفكر الدينى :

مهما كانت هناك جذور فردية أو رأسمالية فى العقيدة الدينية ، فإن هذه الجذور قد تشئت الآن وتبخرت .

من الأمثلة على ذلك قول البابا بول السادس (١٩٦٧) : «لا تعطى الملكية الخاصة لأى فرد حقاً مطلقاً أو غير مشروط . لا أحد يحق له الاحتفاظ (من أجل استخدامه الخاص) بما ليس هو فى حاجة إليه بينما يكون هناك آخرون محرومون من الضروريات» .

ومن الأمثلة أيضاً قول البابا جون بول الثانى (١٩٩٣) فيما قد يعتبر أكبر هجوم من الكنيسة على الفردية : «ليس من المقبول القول أن هزيمة ما يطلق عليه اشتراكية يترك الرأسمالية كنموذج وحيد للتنظيم الاقتصادى» .